فَبِمَنْ أَعَزَّكَ واصْطَفَاكَ فأجْزَلَ الـ ـنُّعمَى عليكَ فَحَوْضُ فَضْلِكَ مُتْرَعُ
سَلْ جَبْرَ أُمَّتِكَ الكسيرَةِ إنَّهُ لم يَبْقَ في قَوْسِ التَّجَلُّدِ مَنْزِعُ
مَحَقَتْ طُغَاةُ التُّرْكِ أطْرَافَ القُرَى فالمالُ نَهْبٌ والمنازِلُ بَلْقَعُ
واشفَعْ إلى الرَّحمن في غُفْرَانِ ما هَذي عُقوبَتُهُ فأنْتَ مُشَفَّعُ [١]

فنحن نرى الشّاعر هنا – وكأنه ينطق باسم الأمّة كلّها – يتحدّث عمّا أصاب البلاد من اجتياح التُّرْك ، ويعني بهم المغول الذين قُدِّر أن يكون الشّاعر نفسُه واحداً من أولى ضحايا اكتساحهم لبغداد .

وكما ارتبط المديح النّبويُّ في العراق بصلاح الدين الأيوبي ، وبالرِّجال الذين حَفّوا به وشاركوا في جهاده الإسلاميِّ ، كذلك كان الأمرُ في بلاد الشّام ومصرَ . ففي هذه الفترة من أواخر القرن السّادس وأوائل السّابع نجد في الشّام كَوْكَبَةً من كبار الشُّعراء الذين نَظَموا في هذا الفنِّ كثيراً من قصائدهم ، منهم علي بن محمد الدِّمَشْقِيّ المعروف بابن السّاعاتي (عاش بين ٥٥٣ و ٦٠٤) وهو الذي تنبّأ له بفتح القدس ، وهَنّأه بعد ذلك بهذا الفتح العظيم وغير ذلك من انتصاراته [٢] ، كما نرى في قوله :

لقد ساغَ فَتْحُ القُدْس في كُلِّ مَنْطِقٍ وشاعَ إلى أنْ أسْمَعَ الأسَلَ الصُّمَّا
فليت فَتَى الخَطّابِ شاهَدَ فَتْحَها فَيَشْهَدَ أنَّ السَّهْمَ من يُوسُفٍ أصْمَى [٣]

---

(١) برأ : خلق ، الصُّمُّ الصِّلاب : الصُّخور الصُّلْبة ، مُتْرَع : مليء ، وجَبْر : سلامة ، خِلاف الكسر ، ولم يبق في قوس التَّجَلُّد مَنْزع : كناية عن فروغ الصَّبر . محقت : أهلكت ومحت ، وبلقع : قفر خالية من مظاهر الحياة .

(٢) عن ابن السّاعاتي انظر : عصر الدّول والإمارات للدكتور شوقي ضيف ، ج ٦ ، ص ٦٤٠–٦٤٢ ، وبروكلمان ، ج ٥ ، ص ٤٩–٥٠ .

(٣) ساغ : حلا ، الأسل : الرماح ، فتى الخطاب يعني عمر بن الخطاب (رضه) الذي تم في عهده فتح بيت المقدس ، يوسف هو اسم صلاح الدين الأيوبي ، أصمى : أصاب .